من الصفات التي يفتخر بها العربي / كتاب البيان والتبيين للجاحظ / ج٣ /١٨٥

يقول الشاعر (السموأل) :

تعيّرنا أنّا قليل عديدنا فقلت لها انّ الكرام قليل

وما قلّ من كانت بقاياه مثلنا شباب تسامى للعلى وكهول

وما ضرّنا أنّا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهام ولا فينا يعدّ بخيل

وأسيافنا من كلّ شرق ومغرب بها من قراع الدارعين فلول

معوّدة ألاّ تسلّ نصالها فتغمد حتى يستباح قتيل

سلي ان جهلت الناس عنّا وعنهم وليس سواء عالم وجهول

هذه الأبيات لشاعر جاهلي هو (السموأل) ، وقد اخترناها ممّا اختارها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ، وهي تحمل من الصفات والخصال التي يعتزّ بها العربي ، تتجسد فيها البطولة والشجاعة والمروءة ، والنخوة ، وما تتطلع اليه النفس من عزّ وشهامة .

أراد الشاعر أن يبرز هذه السجايا التي يرى أنها متأصلة فيه وفي قومه ، وهي محلّ فخر ، لأنها في نظره تشكل مأثرة ومجدا" ، ومكانة مرموقة في المجتمع العربي آنذاك ، ولكي يصل الشاعر إلى ما يصبو اليه من اعلاء قدر هذه المعاني التي يعتزّ بها ويتطلع اليها العرب في ذلك الوقت ، فقد اتخذ المرأة التي تلومه ، وتعير قومه بقلة عددهم وعديدهم كوسيلة وواسطة يعبر عليها لإبراز هذه الصفات والمثل التي يعدّها قيما " كبيرة يعتزّ بها ويفخر ، وكثير ما يتخذ الشعراء المرأة في شعرهم كعاذلة أو لائمة ، كأن تلومه على بذل المال وإنفاقه كما جاء في شعر حاتم الطائي .

وعاذلة هبّت بليل تلومني وقد غاب عيّوق الثريا وعرّدا

أي تلومه على سخائه وبذله المال ، وما يملك ، لأنه كريم يقري ويطعم الضيوف في النهار

والليل .

وتحظى المرأة عند الشاعر بأهمية كبيرة ، للعاطفة الحميمة بين الرجل والمرأة ، وهي الطرف الثاني التي تقف إلى جانبه ، وتشاركه في هذه الحياة .

نجد في هذه المقطوعة محاورة بين الشاعر وهذه المرأة التي اتخذها الشاعر في شعره ، وقد تكون هذه المرأة حقيقية كأن تكون زوجة أو محبوبة للشاعر ، وقد تكون وهمية يصطنعها الشاعر ليتخذها جسرا يعبر عليه إلى الوصول إلى أفكاره ، وما يتولد عنها من رؤى تنتجه مخيلته فيأتي كلامه محملا بالمشاعر والأحاسيس الصادقة .

نجد هذه العاذلة أو اللائمة تعنّفه وتعيّره وتعيبه وتزدري عليه وعلى قومه قلة عددهم وعديدهم وتعد ذلك مثلبة وعيبا ، لأنها ترى أن هذه الحالة فيها ضعف وذلّ ، ومن كانت هذه حاله تقلّ مكانته ومنزلته بين القبائل ، فلا يقوى على تحقيق المجد ، أو دفع نازلة أو ملمّة في ذلك المجتمع الذي تسود فيه الحروب والعصبية القبلية ، وتعتقد أن في الكثرة عزا" وسؤددا" . ولكن الشاعر يقف بالضد من ذلك . فيجد في قومه على قلتهم شموخا" وعزّا وكرما" وأباء" ، ومجدا" لا يدانيه مجد ولعلّ ذلك لا يجده في الأقوام الكثيرة في العدد والعديد ، ولا يتوافر فيهم ما يتوافر في قومه ، ويذهب في كلامه ليمتدح القلة بقوله (انّ الكرام قليل) ، لعله يرى أنّ القلة هم النخبة ، وهم خيار القوم ، وأن الكثرة فيها الجيد والرديء والمسيء والحسن .

ونجد في القران الكريم عددا" من المواضع جاء القليل ممدوحا" نحو قوله تعالى:

" وما آمن معه الاّ قليل " وقوله تعالى " وقليل من عبادي الشكور " .

ويمكن تعليل أن تكون القلة محمودة ، لأنهم يتصفون بالصفات الكريمة الشريفة بما يتحلون به من كرم الأخلاق وسخاء النفس، وصبر في تحمل الأعباء والشدائد ، والوقوف في المهمات ، والصمود في الأزمات والملمّات ،وما يحملونه من صفات المروءة والوفاء والايثار ، ولعله لا يتوافر عند كثير من الناس ، لان ذلك يتطلب رياضة نفسية ، وتحمل وتكليف للنفس ، لذا يقلّ هذا الصنف من البشر ، في حين ينصرف كثير من الناس وراء أهوائه ونزواته وتلبية رغباته ، وايثار نفسه على غيره .

ثم يدلي الشاعر على هذه القلة التي يفخر بها مبينا الأسباب في ذلك ،وهو يحاول تغيير نظرة هذه المرأة من نظرة قاصرة فيها ازدراء وعيب لهذه القلة ، وتحويلها إلى نظرة توافق وتنسجم مع رأيها الذي يجعل من الكثرة قيمة عليا ، فيبين أن من حقق المآثر والمكرمات ، من خلال ما دلّت آثارهم على أفعالهم فهم ليسوا بقلة بل هم كثر بهذه الأفعال الحميدة المجيدة ، ولذا فهو ينفي عنهم هذه النظرة القاصرة من هذه المرأة وذلك لأنهم يتطلعون إلى السمو والعلو لتحقيق تلك المآثر والأمجاد في قوله :

وما قلّ من كانت بقاياه مثلنا شباب تسامى للعلى وكهول

لقد مدح أبناء عشيرته وقومه وخصّ بذلك الشباب والكهول ، لأنهما الفئتان اللتان تقع عليهما مسؤولية أكبر في تحقيق هذا المجد ، وكذلك مسؤولية حماية القبيلة والدفاع عنها ، وطلب السمعة الطيبة لأبناء قومهم ، ولذا فقد خصهم بذلك مقدما" الشباب على الكهول لما يتميز به الشباب من القوة الفاعلة في الحياة ، لما يتمتعون به من الفتوّة والبسالة ، ولما يعتمد عليهم في البأساء والضّراء

ثم يبين رادا" نظرة هذه المرأة ، من خلال فخره بهذه القلة مادامت ملتزمة بالسجايا الحميدة وحفظ عاداة طيبة عند العرب وهي حماية الجار واكرامه ، وهو يعيش في كنفهم عزيزا" شريفا" في حين قد يعيش مهانا" ذليلا" عن قوم هم كثيرون في عددهم وعددتهم . ومن خلال هذه المفارقة في قلة عددهم وكثرة غيرهم ، وعزّة الجار عندهم ،وذلته عند غيرهم استطاع الشاعر أن يلفت الأنظار ويقنع المتلقي بمدح هذه القلة وكذلك أثبات مجده وتساميه في هذه الحياة . كما قال

وما ضرّنا أنّا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

أي القلة مع هذه المأثرة والمكرمة لهي شيء حسن وكبير يسجل شرفا "وعزا" لقومه .

ويذهب الشاعر يعدد هذه المآثر والمواقف والبطولات ليثبت من خلالها أن الأصالة والأمجاد لا تجلب من كثرة العدد ، وانما بالمواقف النبيلة فيصف قومه بماء المزن ، والمزن هو السحاب المنسجم الثقيل المندفع والعزيز الذي تنعم به الحياة ، وتزدهر به الأرض من خلال ما تنبته وتخرجه وهو رمز يتخذه الشعراء للخير والنماء ، والكرم والسخاء ،لذا فهو يصف قومه بالمزن التي تعطي المزايا ، وينفي في هذا البيت أن يكون في أصلهم وهو في قوله (ما في نصابنا) ويراد بالنصاب

الأصل، وقد أراد به العدد نفى أن يكون بينهم من هو (كهام)، و (الكهام) على وزن (فعال) هو البطيء عن النصرة والحرب ، أي ليس فينا من هو يتباطىء أو يتثاقل عن الحرب اذا وقعت بل يسارع في الذب عن حياضه وعن قبيلته ، وكذلك نفى البخل عنهم ، قال في هذا البيت

فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهام ولا فينا يعدّ بخيل

وفي نفي البخل عنهم اشارة إلى ما وصف في صدر البيت الأول، حينما وصفهم بماء المزن ويريد بذلك الكرم والجود بالنفس وبكل غال ، وبعد هذا الوصف جاء النفي لهذه الصفة في عجز البيت من قوله (ولا فينا يعدّ بخيل) وهذا من باب التناسب في التعبير في ذكره الأضداد وبين الكرم والبخل .

ثم جاء قوله :

وأسيافنا من كل شرق ومغرب بها من فلول الدارعين فلول

هنا إشارة إلى بطولاتهم وما يحققونه في منازلاتهم في كل الأحوال ، فانهم الأسياد في هذا الميدان

ونجد الشاعر لم يكن كلامه صريحا أو مباشرا" كأن يقول نحن المنتصرون في المنازلات أو غيرذلك ، بل أنه كنى عن ذلك كناية او من خلالها جاء كلامه بليغا" لأن الكناية واحدة من فنون البلاغة

يستعملها المتكلم للكشف والبيان عن قوله ،والتأثير فيه ، فاستعماله أدوات الحرب(أسيافنا والدروع) في قوله (قراع الدارعين) فيه إشارة إلى بأسهم في الحرب والمنازلة وقوله ان سيوفهم فيها فلول وهو الثلم والتصدع فيها بسبب الضرب والمقابلة بين الخصوم وعبارة(قراع الدارعين)أي ا لضرب بين الأبطال وهو صوت يصدر بسبب ضرب السيف بدرع المقاتل ، لان المقاتل يلبس لامة حربه من درع وطاس .. وقال كذلك :

معوّدة لا تسلّ نصالها فتغمد حتى يستباح قتيل

فيه إشارة إلى ما يتمتعون به من ورع وأناة ، وعقل وحلم ، لكونهم لا يطلبون الحرب ولا يسارعون إلى إراقة الدماء ، وكذلك احترام النفس الإنسانية ، وعدم التفريط بها ، وهذا يدل على

إعطاء القيمة الكبيرة للحياة وعدم الاستخاف به ، فهم لا يدخلون الحرب الاّ مكرهين عليها ، ليس تخاذلا" أو خوفا" ، وإنما دفعا " للشرّ ، واحتراما" للوئام وحفاظا" على الأنسان ، ودرءا" لانتهاك الحرمات وما تجرّه الحرب من ويلات وأضرار ، وما تخلفه من مآس ، وما تورّثه من أحقاد وأضغان وشحناء تبقى على مر العصور ، لذا فهم يؤثرون ذلك على إشعال نائرة الحرب ، ويستدل على ما تقدم من الكلام أن أسيافهم لا تسلّ أي لا تسن نصالها والنصل هو السيف ، بل تبقى في أغمادها ، والغمد هو البيت الذي يحفظ منه السيف أو هو جراب السيف ولكن هذه السيوف تسلّ وتخرج من اغمادها حينما يتعدى أو يجار عليهم أو يستباح قتيل ، اي يقتل منهم انسان وتذهب حرمته ظلما" وعدوانا ، فهنا لا يتهاونون عن الدفاع ، وبذل ما يملكون .

ثم يختم الجاحظ هذه المقطوعة الشعرية بهذا البيت الذي ذهب مثلا" بين الناس ، وقد كثر تداوله وتردد على ألسنة الناس قديما" وحديثا" ، يقول :

سلي ان جهلت الناس عنّا وعنهم وليس سواء" عالم وجهول

بعد هذا الحجاج بين الشاعر وبين هذه المرأة التي اتخذها واسطة في شعره للوصول إلى طرح هذه المآثر التي يفخر بها يختمها بهذا البيت كي يثبت لها حجته التي شرحها بما هم فيه من مجد تليد فهو يستشهد لها على ذلك بالشهرة المدويّة التي عرفها الناس من فعل قومه يطلب منها أن تسأل عما ذكره لها ، لآنه يعلم أن الناس ستعرفها بهم ، وهو يطلب منها أن تقف بنفسها على الطرفين من قوم الشاعر ، والأخرين الذين وقعت بينهم المنازلات . وهو أيضا يبين لها ما يبديه هؤلاء الناس (الشهود) ، ولكنه لا ينسى أن يذكرها بحقيقة حتى لا تنكر ما ذكر لها من وصف قومه ، وهي أن طبيعة الناس على صنفين فهم غير مستوين فيما يسألون عنهم لذا قال (وليس سواء" عالم وجهول).اي أن منهم العالم والجهول . أي العالم بحقيقة الأمر والجهول به سواء كان الجهول ، جاهلا حقيقة أي ليس له علم بذلك . أو أن يكون معناه متجاهلا" أي عارفا" بالحقيقة لكنه منكر لها على وجه التعمد والعداوة ، وإخفاء ما هو حق .